

٢ - شمس الدين السخاوى

حياته وتراثه

للأستاذ محمد عبد الله عنان

ولنستعرض الآن تراث السخاوى وآثاره ، بعد أن أتينا على حوادث حياته وظروف تكوينه ؛ وللسخاوى تراث حافل ينم عن غزير مادته ونشاطه ؛ وقد تلقينا منه الكثير ، وتلقينا بالأخص أهمه وأقيمته . ويعنى السخاوى في ترجمة نفسه بتمداد رسائله ومؤلفاته ؛ ويستغرق تمداها عدة صفحات من ترجمته ؛ ويضم هذا الثبت الحافل كتباً ورسائل في عدة فنون مختلفة ؛ ولكننا نستطيع بوجه عام أن نقسم آثاره إلى قسمين : قسم الحديث ، وقسم التاريخ

وقد كان السخاوى كما رأينا محدثاً كبيراً ، انتهى إليه علم الحديث في عصره ؛ بيد أنه كان أيضاً مؤرخاً بارعاً ، ونقاداً لا يجارى ؛ والجمع بين الحديث والتاريخ خاصة لكثير من أقطاب المؤرخين المسلمين مثل كتاب السيرة ، والطبرى ، والذهبي ؛ وعلم الحديث بما يحتويه من قواعد الاسناد وتحصيل الرواية ، والجرح والتعديل ، خير معونات للمؤرخ الناقد على تحرى الحقائق ؛ وهكذا كان السخاوى محدثاً ومؤرخاً ؛ وكانت براعته النقدية في التاريخ ترجع في كثير من الوجوه إلى براعته في الجرح والتعديل كحدث ؛ وهذه الصبغة النقدية البارزة هي التي تسبغ على آثاره التاريخية قوتها وطرافتها

ومحدثنا السخاوى في ترجمته بأنه شرع في تأليف « قبل الحسين » ؛ ولكن هنالك ما يدل على أنه وضع بعض التصانيف قبل سنة ٨٧٠ هـ ، أعنى وهو في نحو الأربعين من عمره ؛ فهو يحدثنا أنه لما حج للمرة الأولى سنة ٧٠ ، قرأ بعض تصانيفه في مكة^(١) ، وإذا فهو قد بدأ التأليف في سن متقدمة ؛ بيد أنه أنفق شبابه في استيعاب النصوص والمراجع ، ونزل ميدان التأليف

(١) السخاوى في ترجمة نفسه - في الضوء اللامع في المجلد الثاني

مزوداً بجادة غزيرة ؛ ولبث مدى الثلاثين عاماً التالية يخرج الكتب والرسائل تبعاً ، ولم ينقطع عن الكتابة حتى أعوام حياته الأخيرة

وبدأ السخاوى التأليف في ميدان الحديث ، فوضع فيه عدة كتب ورسائل يعنى بتمدادها في ترجمته ، ولكننا لم نتلق منها سوى القليل ؛ وأشهرها كتاب « المقاصد الحسنة في الأحاديث المشتهرة » ، وهو من كتب الحديث المتداولة ، ومنها « فتح الميث بشرح ألفية الحديث » و « الناية في شرح الهداية » و « الاخبار المكلفة في الأحاديث المسلسلة » و « شرح الشاغل النبوية للترمذى » و « التحفة اللينة فيما وقع من حديث أبي حنيفة » ، وعدة كتب ورسائل أخرى في شرح متون الحديث ، وعدة حواش وذبول لبعض كتب الحديث المعيرة يذكرها كلها في ترجمته ، ولا يتسع هذا المقام لذكرها^(١)

وكتب السخاوى في هذه الفترة الأولى أيضاً عدة رسائل عن رحلاته المختلفة ؛ منها الرحلة السكندرية وتراجيحها ؛ الرحلة الحلبية وتراجيحها ؛ الرحلة المكية ؛ والثبت المصرى ؛ وفيها يصف تجواله ودراساته في تلك الأنحاء ؛ ووضع كتاباً في تراجم شيوخه وأساتذته اسمه « بنية الراوى فيمن أخذ عنه السخاوى »

على أن أم ما في تراث السخاوى هو مجهوده التاريخي والأدبي ، ففيه يرتفع السخاوى الى ذروة القوة ، وفيه تبدو شخصيته في أبرز خواصها ومواهبها ؛ وقد أنتمت الينا نمجة من هذا التراث القيم . ومن الصعب أن نتتبع الترتيب الزمني في استعراض هذه الآثار ؛ ولكن يلوح لنا أن السخاوى قد استعمل مجهوده التاريخي بوضع كتاب « التبر السبوك في ذيل السلوك » والسلوك الذي وضع هذا الكتاب ذيلاً له هو كتاب « السلوك في دول الملوك » لتقى الدين المقرئى ، وقد تناول فيه تاريخ دول المالك المصرية حتى سنة ٨٤٤ هـ ؛ وتناول السخاوى في كتابه تاريخ مصر الاسلامية من سنة ٨٤٥ - ٨٥٧ هـ ؛ وكتبه كما يقرر في مقدمته نزولاً على رغبة الداودادار شبك المهدي وزير

(١) راجع الضوء اللامع - المجلد الثاني ص ٧٥ وما يليها حيث صدر السخاوى كته وتأليفه

ويمتاز « الضوء اللامع » بقوة فائقة في التصوير ليس لها نظير في كتب التراجم الاسلامية ، ويمتاز بالأخص بروحه النقدية اللاذعة ؛ وهنا يبدو السخاوي في أعظم خواصه وكفاياته الأدبية تقادة لا يجارى ؛ بيد أن هذه النزعة النقدية تحمله بعيداً في مواطن كثيرة ، فينزح عندئذ إلى التجريح والهدم بقسوة ، ويطبع نقده بحامل بين ؛ وقد ترجم السخاوي كثيراً من أقطاب العصر ، ولكن أحداً منهم — إلا شيخه ابن حجر — لم ينبج من تجربته اللاذع ؛ وترجم المقرئزي وابن خلدون وابن تفرى برى والسيوطى أمثلة واضحة والاتقاص ظاهراً ؛ وهو لا يكاد يطبق عقربه السخاوي بالتجريح والاتقاص ظاهراً ؛ وهو لا يكاد يطبق عقربه بارزة من عقريات هذا القرن إلا هاجمها بشدة ؛ وهو يبدو في أحيان كثيرة في حملاته قوياً صارم الرطاة ، غير أنه يبدو في أحيان أخرى سقيماً تعوزه الحججة فينحدر عندئذ إلى ما يشبه القذف المجرى ؛ وقد كان السخاوي أشد الناس شعوراً بقوته ومضاء نلمه ، وكان كثير الاعتداد بهذه القوة ، يشيد بها في مقدمة الضوء اللامع فيما يأتي : « ولكنني لم آل في التحري جهداً ، ولا عدلت عن الاعتدال فيما أرجو قصداً ، ولذا لم يزل الأكارب يتلقون ما أبدىه بالتسليم ، ويتوقون الاعتراض فضلاً عن الأعراض عما ألقيه والتأيم ، حتى كان المرز الحنبلي والبرهان بن ظهيرة المعتلى يقولان ، إنك منظور إليك فيما تقول ، مسطور كلامك المنمش للعقول ، وقال غير واحد ممن يعتد بكلامه وتمتد إليه الأعناق في سفره ومقامه ، من زكيتة فهو العدل ، ومن مرضته فالضعيف الملل ... بل كان بعض الفضلاء المعتبرين يتمنى الموت في حياتي لا ترجمه بمالعه يخفى عن كثيرين ... » . ويفرد السخاوي لنفسه في كتابه ، كما رأينا ، ترجمة صافية ؛ ويذيلها ببند عديدة من أقوال شيوخ العصر وأعلامه في مديحه والاشادة بنزير علمه ، والتنبؤ به بتبونه مراكز الرياسة والزمامة في علم الحديث ، ومنها ما خصه به بعض خصومه كالبقاعي قبل أن تنشب بينهما الخصومة ، ثم يتبع ذلك بإيراد بعض القريض الذي قيل في مديحه وتقديره .

وقد كان كتاب « الضوء اللامع » حاداً أدبياً عظيماً ؛ تردد في كثير من مواطنه أصداء تلك المارك الأدبية الشهيرة التي نشبت مدى حين بين السخاوي وبين بعض أقرانه وتلاميذه ولا

السلطان الظاهر خشقدم^(١) ؛ وعنى السخاوي بتدوين حوادث هذه الفترة المعاصرة بأسباب ، وذيل كل عام بوفيات أعيانه ، وانبج فيه طريقة الترتيب الزمني ؛ وكتب السخاوي أيضاً ذيلاً لكتاب شيخه ابن حجر « رفع الأصر عن قضاة مصر » وهو الذى يتناول فيه تراجم القضاة المصريين حتى عصره ، وسماه « ذيل رفع الأصر »^(٢) ، وفيه يتناول تراجم القضاة المصريين حيث وقف شيخه ابن حجر

وأعظم آثار السخاوي بلا ريب هو كتابه الضخم « الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع » ، وهو موسوعة حافلة تقع في عدة مجلدات ويتم عنوانها عن موضوعها ، ويبسط لنا السخاوي موضوع كتابه في ديباجته على النحو الآتى : « فهذا كتاب ... جمعت فيه من علمته من هذا القرن الذى أوله سنة احدى وثمانمائة ، ختم بالحسنى ، من سائر العلماء والقضاة والصلحاء والرواة والأدباء والشعراء ، والخلفاء والملوك والأمراء ، والمباشرين والوزراء ، مصرياً كان أو شامياً ، حجازياً أو يمنياً ، رومياً أو هندياً ، مشرقياً أو مغربياً ، بل وذكرت فيه بعض المذكورين بفضل ونحوه من أهل اللمة ... » وقد هيأت حياة السخاوي نفسه ونحوه في مصر والشام والحجاز ، ولقلوه لثلاث العلماء والأدباء في عواصم هذه الأقطار ، وما قيده عنهم في مختلف رحلاته ، مادة حسنة لكتابه المستقبل . وأنفق السخاوي بلا ريب أعواماً طويلة في إعداد مواد وتنظيمها واستكمالها ؛ والظاهر أنه لم يبدأ في كتابة معجمه إلا في أواخر القرن التاسع حوالى سنة ٨٩٠ هـ واستمر في الكتابة فيه حتى سنة ٨٩٧ أو ٨٩٨ هـ ؛ يدل على ذلك أنه يصل في ترجمة نفسه حوادث حياته حتى سنة ٨٩٧ هـ ، وأنه يذكر ضمن كتبه « كتاب التوبيخ لمن ذم أهل التاريخ » وقد كتبه حسبما يقرر في خاتمته بمكة سنة ٨٩٧ هـ ؛ هذا فضلاً عن أنه يترجم لكثيرين توفوا سنة ٨٩٧ هـ^(٣)

(١) التبر المسبوك (ص ٥) — والاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ (ص ٤٥)

(٢) حصلت هار الكتب أخيراً على صورة فتوغرافية لهذا الكتاب منقولة من نسخة بخط السخاوي نفسه وهي في مجلد

(٣) يراجع الضوء اللامع — ج ١ ص ١٠١ في ترجمة ابراهيم التلوانى وقد توفى سنة ٨٩٧ هـ

من الشاهد والمدافن التي لم يمن بها المقرزي في خطه ، ولا يزال الكثير منها باقياً إلى اليوم ؛ ومن ثم كانت أهمية الكتاب في تاريخ الخطط المصرية ، إذ نستطيع بالرجوع إلى معالنه أن نحدد كثيراً من مواقع القاهرة القديمة وأحيائها وشوارعها في القرن التاسع الهجري

وأما الثاني ، فهو كتاب « الاعلان بالتويخ لمن ذم التاريخ » وهو رسالة نقدية قيمة ، يعرف السخاوي فيها علم التاريخ ويشيد بفضلها ؛ ويتناول طائفة كبيرة من المسائل والباحث النقدي التي تدخل في حيز التاريخ ؛ ثم يذيلها ببيانات ضافية لجميع المؤلفات التاريخية الإسلامية التي ظهرت في مختلف أبواب التاريخ وعموره ، مثل كتب السيرة ، وكتب التراجم المختلفة ، وما ألف في تواريخ الطوائف والجماعات المختلفة ، مثل تواريخ القضاة والحفاظ والشعراء والفقهاء والأطباء والاشراف والأدباء والعشاق والصوفية وغيرهم ؛ فهو بذلك فهرس بديع شامل لأهميات الكتب التي وضعت في هذه النواحي المختلفة ، ويتخلل ذلك مواقف نقدية كثيرة تجعل لهذا الأثر قيمة خاصة

هذا هو استمرار موجز لتراث السخاوي وآثاره ، ولا ريب أن مجال البحث والقول يتسع لأضعاف هذا العرض الموجز ، لذا أردنا أن نفي شخصية السخاوي ونواحيه الأدبية والنقدية المتمدة حقها من التحليل والبحث ؛ وقد كان السخاوي بلا ريب من أعظم شخصيات مصر الإسلامية والعالم الإسلامي في القرن التاسع الهجري

محمد عبد الله عتاه

(تم البحث)

(النقل ممنوع)

الرسالة في الصيف

تسهيلاً لوصول الرسالة الى قرائها مدة العطلة
تقبل الادارة الاشتراك الشهري بأربعة قروش عن
كل أربعة أعداد تدفع مقدماً

سيا البقاعى والسيوطى ؛ واتخذت سوراً من العنف لم تعرفها الآداب العربية من قبل ؛ واستمر صداها يدوى مدى حين بعد وفاة السخاوى وخصومه ، وكانت من أهم وأعزب الحوادث الأدبية في هذا العصر (١)

وكتب السخاوى إلى جانب الضوء اللامع كتباً أخرى في التراجم منها حسبما يذكر كتاب « الشافى من الألم في وفيات الأئم » وهو نبت لوفيات الأعيان في القرنين الثامن والتاسع مرتب حسب السنين ، وعدة تراجم مطولة لبعض الأئم ؛ بيد أنه لم يصلنا من هذه الكتب سوى ترجمة شيخه ابن حجر في مجلد ضخيم أسماه « كتاب الجوهر والدرر » ، وقد حصلت دار الكتب أخيراً على نسخة فتوغرافية لهذا الكتاب ، وفي خاتمه ما يفيد أن السخاوى كتبه في مكة سنة ٨٧١ هـ ؛ وفيه يتحدث بإفاضة عن نشأة ابن حجر ، وتربيته ، وصفاته ، ومواهبه ، وعن حلقاته ودروسه وتصانيفه ، ثم يورد مختارات من كلامه وفتاويه ، وما قيل في رئائه من تتر ونظم

وهناك عدة مؤلفات تاريخية أخرى يذكر السخاوى أنه كتبها ، ولكنها لم تصل إلينا مثل « التاريخ المحيط » الذى يشغل ثلثمائة رزمة ، وتاريخ اللدنيين ، وتلخيص تاريخ اليمن ، ومنتقى تاريخ مكة ، ثم طائفة أخرى متنوعة منها : ختم السيرة النبوية لابن هشام ، القول النافع في بيان المساجد والجوامع ، القول التام في فضل الرى بالسهم ، عمدة المحتج في حكم الشطرنج ، الكنز المدخر في فتاوى شيخه ابن حجر ، القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيق ؛ ومن هذا الأخير نسخة بدار الكتب

ونجد أخيراً في تراث السخاوى أثرين من نوع خاص ولهما أهمية خاصة ، وقد انتهى كلاهما إلينا ؛ أولهما كتاب « تحفة الأحباب » ، وبغية الطلاب ، في الخطط والمزارات والبقاع المباركات ، وهو دليل لخطط المشاهد والمزارات والبقاع المقدسة ، ولا سيما مصر القاهرة ؛ وفيه وصف لأحياء مصر القاهرة التي تقع فيها هذه المشاهد في أواخر القرن التاسع ؛ وذكر لكثير (١) سبق أن عالجت هذه المارك الأدبية الشهيرة في بحث مستفيض نصرناه في مجلة الهلال الفراء (سنة ١٩٣٢)